مقاربة سيميائية لنص قصصي:

حكاية «القرد والغيلم» في كتاب كليلة ودمنة

د. سامي سويدان

إن الموقف التعليمي للنص القصصي التمثيلي لا يقتصر على بنيته العامة في كثافتها وتراكبيتها، ولا على الأداء المتعلق بالمهام المحورية فيه في تعددها وتنوعها، وإنما هو متجسد كذلك في أنماط الشخصيات القائمة بهذه المهام وعلاقاتها فيما بينها، كما هو متجسد في الأطر والمجالات المكانية والزمانية التي تتحرك وتتعامل فيها. بناء لذلك تسهم دراسة هذه المجالات وتلك الأنماط ببلورة أبعاد إضافية في غايات النص التعليمية بقدر ما تساهم في بلورة الصيغ الخصوصية المحددة لعمليات الصراع القائمة فيه.

أ ـ من الملاحظ في هذا الصدد أن أي تطور حدثي يرتبط بشكل وثيق بتغير في المعطيات المكانية والزمانية بحيث يمكن للتحركات التي تقوم بها الشخصيات أن تعطي صورة عن التحولات الأساسية في العمل القصصي والنتيجة النهائية التي تصل إليها. وقد يكون في تقديم ترسيمة أولية لهذه التحركات ما يساعد على توضيح ذلك.

١ ـ الفضاء القصصي الخاص بالقرد والغيلم

١ ـ عالم القرود (الغابة)	٢ ـ ساحل البحر (الحد المشترك)	٣ ـ عالم السلاحف (البحر)	٤ ـ عالم الوعد الكاذب
عالم الأهل · الاجتماع والقوة	الابتعاد والاتصال: الصداقة والعداوة	العداوة والصراع	الرغبة والوهم
العيش الجماعي	الأمان والخطر	الخطر والموت	العدم

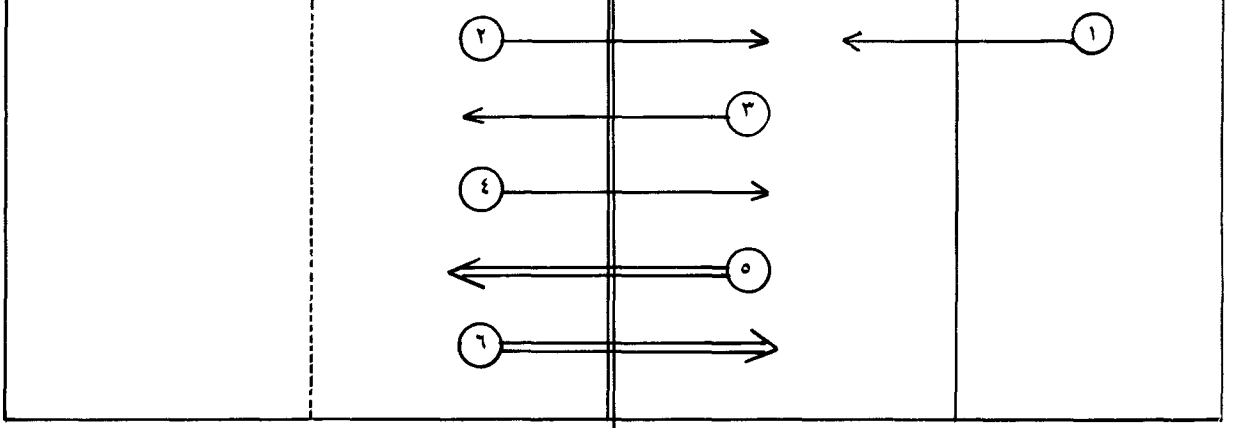

لدينا في النص ستة تحركات مكانية تعبر عن أهم تطورات الأحداث في حكاية القرد والغيلم. يشير التحرك الأول إلى الانقلاب الذي تعرض له ملك القرود (فاردين) وأدى إلى نفيه من مجتمعها وانتهى به إلى ساحل البحر. يعتبر هذا المكان الحد الأقصى الذي لا يمكن للقرد تجاوزه إلا وتعرض لخطر الموت، وهو يدل على التحول السلبي الذي طرأ عليه في انتقاله من السلطة والزعامة في

عالم الأهل الأمين إلى الضعف والانعزال في هذا الموقع المتطرف والدقيق، ويدل في الوقت نفسه على الوجهة التي يتخذها التحول المذكور بحيث يعين مؤشر السهم علامة سلبية في التحول والتحرك.

أما التحرك الثاني فهو الذي يقوم به الغيلم، إذ ينتقل من البحر إلى الساحل ليلتقي القرد ويصبحا صديقين. وهو يعتبر من وجهة نظر القرد تحركاً إيجابياً، ويعلن مؤشر سهمه اتجاهه ذا الطابع الإيجابي باعتباره نقيضاً لاتجاه المؤشر الأول. لكن الغيلم يغادر في هذا التحرك عالم الأهل الذي ينتمي إليه، ويتصل بطرف قائم على الحد الفاصل بين هذا العالم والعالم الآخر الذي لا يمكنه ولوجه إلا وعرّض نفسه لخطر الموت. فهو بالنسبة للغيلم سلبي ضمناً، خلافاً لسلبية الأول المعلنة. تتمثل سلبيته الضمنية قصصياً في ما يجري وراءه، لدى أهله، من تطورات مؤذية ومرتبطة بهذا التحرك (تواطؤ الزوجة وصديقتها على التخلص من القرد). يتميز هذا التحرك الخاص بالغيلم أخيراً بأن الدافع إليه أمامه وليس وراءه كما هو الحال بالنسبة للقرد الذي جاء الساحل بسبب ما حل به من أذى في عالم الأهل، بينما يجيء الغيلم الساحل لما في هذا المكان بالذات من منفعة (تين) وخير (صداقة).

إن التحرك الثالث الذي يقوم به الغيلم يأتي وكأنه معاكس للسابق. فهو يشكل إصلاحاً للخطأ الذي تضمنه الثاني في إهمال الأهل بالاتجاه نحو الاهتمام بهم. ويدل مؤشر سهمه على هذه الإيجابية في التحول من الحد الفاصل بين عالمي القرود والسلاحف إلى عالم هذه الأخيرة. لكن هذا المؤشر يعتبر من زاوية القرد سلبياً، يؤكد ذلك تماثل شكله مع التحرك السلبي الأول الخاص به، ولا يخرج مضمونه عن ذلك، ليس فقط لأنه ابتعاد عن موقع الصداقة، وإنما أيضاً لأنه ذهاب للوقوع في الفخ المنصوب لهذا القرد بالذات. كما أنه يؤكد خصوصية تحرك الغيلم الذي يندفع بما يستهدفه، بما هو أمامه، وليس بسبب ما هو عليه في مكان الانطلاق. أما التحرك الرابع فيظهر مماثلاً للثاني، والتماثل شكلي جداً هنا، إذ يشير اتجاه السهم من وجهة نظر القرد إلى إيجابية قائمة في عودة الصديق، ومن وجهة نظر الغيلم إلى سلبية يعبر عنها مشروع التخلص من القرد الذي ينتهي إلى تبنيه؛ وهو يستمر محكوماً كسابقيه بالمكان المستهدف، وإن أضيف إليه دافع آخر في مكان الانطلاق.

إلا أن التحرك الخامس يأتي متميزاً عن كل ما سبق بازدواجيته، وهو يعبر عن الانتقال المشترك والمتزامن للقرد والغيلم إلى عالم السلاحف (البحر). يعتبر هذا التحرك من زاوية القرد سلبياً يمعن في الاتجاه الذي عرفه التحرك الأول ويتصل بعالم الخطر والموت. لكنه بالنسبة للغيلم إيجابي شكلاً لأنه يستعيد موقع الأهل. بيد أنه يتقدم للقرد على أنه إيجابي نظراً لما يتوقعه منه، فهو بذلك يبدو في تحركه يعتمد نمط تحرك الغيلم المدفوع بالهدف، كأنه في ذلك يتبنى وجهة نظر الغيلم ويعمل بها دليلاً على انخداعه بأطروحات الغيلم وترغيباته. كما أنه يظهر في حقيقته سلبياً بالنسبة للغيلم الذي يضع إلى جانب التشكيك في صحة هدف التحرك (قتل القرد) التشكيك في صحة الدافع إليه (مرض الزوجة)، وقد يكون ورود الدافع السببي هنا مرتبطاً بموضوع الهدف نفسه (القرد) كما قد يكون التشكيك بالهدف هو ما يعلل توقف التحرك الذي لا يجري من قبل الغيلم إلا مدفوعاً بالغاية التي ينشدها. يمكن اعتبار ازدواجية التحرك تعبيراً عن ازدواجية دلالته وبالتالي عن الاحتيال القائم فيه، كما يمكن اعتبار سهم الانتقال مؤشراً على غلبة طرف (الغيلم) على آخر (القرد).

يجيء التحرك السادس أخيراً مناقضاً للخامس في وجهته، مماثلاً له في ازدواجيته. إنه يدل على عودة مشتركة ومتزامنة للقرد والغيلم إلى الساحل، بما تتضمنه هذه العودة من نقض للذهاب السابق عليها. ووجهة التحرك المعاكسة للسابق هنا تحمل بالنسبة للقرد علامة إيجابية بقدر ما تنقله من عالم الخطر والموت (البحر) إلى منطقة الأمان (الساحل) وهي إيجابية في الظاهر للغيلم الذي يتوقع الحصول على طلبه في نهايتها، بينما هي بالنسبة لعالم الغيلم سلبية في اتجاهها بعيداً عنه، وتتجسد هذه السلبية في تضييع القرد المطلوب. إن «تحرك» القرد هنا محكوم بالمنطلق الذي يبدأ منه (خطر الموت) بينما تحرك الغيلم محكوم بالهدف الذي يتوقع بلوغه عند الوصول (قلب القرد). لكن هذا الهدف وهمي، والهدف الحقيقي مناقض له (خلاص القرد). كأن ازدواجية التحرك السادس هنا تدل أيضاً على ازدواجية دلالية وعلى احتيال قائم فيها كما هو الأمر بالنسبة للتحرك الخامس. ولما كان الاثنان متناقضين فكأن الأخير منهما يلغي سابقه، وإذا كان القرد مخدوعاً والغيلم خادعاً في الخامس فإن الغيلم هو المخدوع والقرد خادع في السادس.

إن انتهاء التحركات عند هذا الحد يبين كما يقول المثل عن تضييع الغيلم للقرد بعد ظفره به، أو كما يمكن القول من وجهة نظر القرد عن خلاص هذا الأخير من الورطة التي وقع فيها بعودته إلى وضعه السابق (أمان الساحل) بعد تعرضه لخطر الموت (عالم البحر). هكذا يقدم الفضاء القصصي بالأماكن التي يأتي على ذكرها والتحركات التي تمارسها الشخصيات فيها صورة مبسطة عن الوضع البنيوي العام للحكاية، حيث يلاحظ وجود أماكن أربعة تعين المجال الحيوي الذي تجري فيه الأحداث. هذه الأماكن هي بالنسبة للقرد تباعاً التالية:

الأول عالم الأهل وهو عالم الحياة الاجتماعية الواقعية التي تسودها معايير القوة والسيطرة ومرارة التقلبات الناتجة عنها.

الثاني عالم العزلة والابتعاد ـ والضعف ـ، يشكل بموقعه قاسماً مشتركاً بين عالم الأهل وعالم الغرباء. إنه عالم لقاء الغرباء والتعرف إليهم والعلاقة بهم التي تحتمل الصداقة كما العداوة. وهو يعتبر مكاناً آمناً بقدر ما يشكل امتداداً لعالم الأهل وعلاقة صداقة بعالم الغرباء، ومكاناً خطراً بقدر قربه من عالم الغرباء وعلاقة العداوة

بهم؛ وهو كذلك بالنسبة للغيلم بقدر ما هو بالنسبة للقرد.

الثالث عالم الغرباء، عالم الخطر والموت. إنه المكان الذي لا يتناسب مع طبيعة القرد، وهو مكان العداوة والصراع الذي يتم فيه التآمر على القرد من قبل زوجة الغيلم وصديقتها، ثم من قبل الغيلم؛ وفيه يرد القرد على هذا التآمر بمثله كي يتمكن من النجاة.

الرابع عالم الرغبة والوهم، وهو عالم كاذب وخادع، عالم فارغ لا تشمله التحركات، لأنه مستحيل أصلاً لكونه غير موجود. وهو إذ يتناقض مع عالم الأهل الواقعي المرير بحلاوة تخييله يتحد بعالم العداوة ويتواطأ معه للتغرير بالقرد كي يقع في شبكة الموت المنصوبة له، فهما يشكلان معاً في النهاية عالماً واحداً.

هكذا تختزل الأماكن الأربعة المذكورة إلى ثلاثة فعلية هي تلك التي تشملها تحركات القرد، بينما لا تشغل تحركات الغيلم إلا اثنين منها، لتدل التحركات في هذين الأخيرين على العلاقة والتعامل بين القرد والغيلم، والصراع الذي يخوضانه فيهما ومآله الأخير.

ب ـ تكاد هذه المعطيات الأساسية للفضاء القصصي الخاص بالقرد والغيلم أن تماثل تلك التي يعرفها الفضاء الخاص بالحمار وابن آوى والأسد في الحكاية المتضمنة في الحكاية التمثيلية الأساسية الأولى ليقتصر الفارق على التفاصيل والنتيجة كما يبين من خلال الترسيمة التالية:

٢ ـ الفضاء القصصي الخاص بالحمار وابن آوى والأسد

١ ـ عالم القصار (الأليف)	٢ ـ المرج	٣ ـ أجمة الوحوش	٤ ـ الوعد الكاذب (المرعى والاتان)
عالم الإنسان (السيطرة والرعاية)	الابتعاد والاتصال: الراحة والخداع	العداوة والصراع	الرغبة والوهم
العيش الآمن	الأمان والخطر	الخطر والموت	العدم

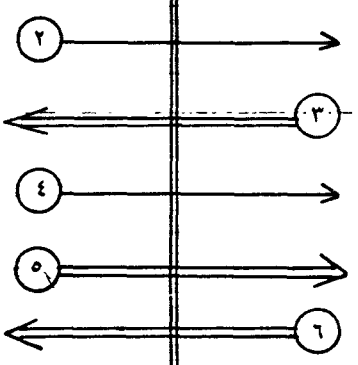

تكاد التحركات الواردة هنا أن تحمل السمات نفسها لتلك الخاصة بالقرد والغيلم على تمايز يبيّن خصوصياتها. فالتحرك الأول يعبر عن انتقال الحمار من عالم صاحبه القصار، وهو عالم العمل والإجهاد، إلى عالم المرج وهو عالم الراحة والرعي، فهو على هذا المستوى انتقال إيجابي؛ لكنه بقدر ما يمثل من ابتعاد عن العالم الأول (الأليف) واقتراب من العالم الثالث (المتوحش) يحمل سمة المخاطرة نظراً لافتقاره إلى الرعاية والحماية اللتين يؤمنهما الأول وللأذى والضرر اللذين قد يجيئان من العالم الثالث الذي يعتبر العبور إليه تعرضاً للخطر والموت. إنه الحد الفاصل بين مجتمع العيش والأمان من ناحية ومجتمع الموت والدمار من ناحية ثانية، ويحمل بالتالي على هذا المستوى سمة سلبية. إن سلبيته الكبيرة تطغى على إيجابيته المحدودة بحيث يمكن اعتبار مؤشر سهمه دليلاً على الوجهة السلبية النهائية فيه.

في المقابل يتقدم التحرك الثاني الخاص بابن آوى مماثلاً للأول ونقيضاً مباشراً له في الوقت نفسه، باعتباره انتقالاً من العالم الثالث الوحشي الآمن المتمثل بأجمة الأسد وتابعه ابن آوى إلى عالم المرج المتوسط بين هذا الثالث الآمن والأول المعادي، إنما على عكس الحمار الذي يصل مكان المرج (المتوسط) للراحة ويتعرض لاحتمال الخطر فيه، فإن ابن آوى هو الذي يقصد هذا المكان مخاطراً بنفسه نظراً لاحتمال نجاحه في اصطياد للحمار يريحه؛ فيبدو هذا التحرك مخاطرة لأنه ابتعاد عن مكان الأمان والعيش المعهود ليدخل الحد الفاصل بينه وبين العالم الأول الذي يعتبر خطراً مميتاً لا يمكن لابن آوى ولوجه دون التعرض لهذا الخطر. لكن ابن آوى لا يمضي إلى هذا المكان إلا ليحمل الحمار على المجيء إلى الأجمة، مع ما يتضمنه ذلك من كسب ونفع له (وللأسد). ولما كان هذا النفع ضرورياً وحاسماً في الوضع الذي

أضحى عليه الأسد (وابن آوى) فإن احتمال الإيجابية القائمة فيه يكاد يعادل احتمال سلبيته، وإذ يعيّن مؤشر السهم هذه السلبية الظاهرة بالنسبة لابن آوى فلتأكيد وجه الخطورة الكامن في التحرك من ناحية، وتخلف الإيجاب فيه عن السلب من ناحية ثانية. إلا أن هذه السلبية الظاهرة لدى ابن آوى تتقدم وكأنها إيجابية ظاهرة بالنسبة للحمار نظراً لتناقض موقعيهما وهدفيهما، على أن هذه الإيجابية ليست في الحقيقة إلا سلبية نظراً لما يعنيه هذا التحرك من حضور للعالم الثالث الخطر في وسط العالم الثاني.

إذا كانت الاحتمالات الخاصة بكل من التحرك الأول والثاني تجعلهما ملتبسين، فإن هذا الالتباس يتبدد في التحرك الثالث الذي يتميز بازدواجيته ودلالته على الانتقال المتزامن للطرفين (الحمار وابن آوى) إلى العالم الثالث (أجمة الوحوش). يدل مؤشر السهم بالنسبة لابن آوى على عودة إلى الموقع الأصيل حيث الأمان والعيش، وهو بذلك يعد إيجابياً بما هو إلغاء لخطورة التحرك السابق وبما هو كذلك تحقيق لكسب بارز يتمثل في حمل الحمار على المجيء معه؛ ولكنه يدل بالنسبة لهذا الأخير على إمعان في السلبية الغالبة المتمثلة هنا في تخطي الحد الفاصل إلى منطقة الخطر والموت، وهو بذلك يعد سلبياً. إلا أن سلبيته الحقيقية غير ظاهرة، بل إنها تتخذ لديه نظراً لخداع ابن آوى له طابعاً إيجابياً، مما يعني اعتناقه لوجهة نظر عدوّه وانجراره معه في منطقه الذي يؤذيه. هكذا تشير الازدواجية أيضاً إلى هذا الاحتيال القائم في التنقل والذي يخفي التناقض بالتماثل.

يجيء التحرك الرابع في انتقال الحمار من عالم أجمة الوحوش إلى المرج حاملاً سمة إيجابية واضحة، باعتباره خلاصاً من الخطر المميت الذي أحاق بوجوده في العالم الثالث والذي عبّرت عنه محاولة افتراس الأسد له. ويدل مؤشر السهم المناقض للسابق على هذه الوجهة الإيجابية. لكن هذا الخلاص غير نهائي باعتباره لم يبلغ بعد عالم الأمان النهائي (العالم الأول) وبقي معرضاً في العالم الثاني (المرج) لمخاطر العالم الثالث المعادي.

إن التحركين اللاحقين (الخامس والسادس) يبدوان متماثلين وإن لم يكونا متطابقين مع التحركين الثاني والثالث، وهما يكرران العلامات الدلالية ذاتها لهما، حيث أن الخامس يعبر عن انتقال ابن آوى مجدداً من الأجمة إلى المرج لخداع الحمار مرة ثانية، وهو كالتحرك الثاني يتميز بالسلبية الظاهرة بالنسبة لابن آوى والإيجابية الظاهرة بالنسبة للحمار. أما السادس فهو كالتحرك الثالث حاسم الإيجابية بالنسبة لابن آوى والسلبية بالنسبة للحمار كما يدل على ذلك مؤشر سهمه، وتعبر ازدواجيته عن ثنائية دلاليته والاحتيال القائم فيه؛ وهو إذ يشكل التحرك الأخير فإن نهايته التي تحل في العالم الثالث تعبر عن الخاتمة الفاجعة التي حلت بالحمار.

إن هذه التحركات التي تقدم بمجملها فكرة أولية عن المعطى البنيوي العام للحكاية تماثل في عددها (ستة) تلك الخاصة بالقرد والغيلم، وتعين مثلها أربعة أماكن في الفضاء القصصي الذي يبنيه النص:

الأول هو عالم القصار وهو العالم الإنساني الذي تحكمه علاقات القوة والسيطرة وعلاقات التدجين والترويض، وهو عالم اضطهاد الحمار واستغلاله وإنما أيضاً عالم حمايته وصونه، فهو عالم العيش الاعتيادي الواقعي له.

الثاني عالم المرج وهو عالم الراحة والرعي، عالم العزلة والابتعاد، وعالم التعرف والاتصال بالآخر (العالم الثالث) المناقض للأول. إنه عالم وسطي فاصل بين هذين العالمين المحيطين به من جهة، وهو يحمل سماتها معاً، الأمان والخطر، من جهة ثانية؛ لذلك هو مجال للالتباس والانخداع.

الثالث عالم الأجمة وهو عالم الوحوش البرية، وهو بذلك عالم مناقض لعالم التدجين الإنساني ويعتبر بالنسبة لحيوانات هذا العالم الأخير الأليفة (كالحمار) عالماً معادياً يحمل سمات الخطر والموت، وفيه تتم عمليات التآمر (ابن آوى والأسد) والصراع (الحمار والأسد) والقتل (الحمار).

الرابع عالم الوعد الكاذب المتمثل في المرعى الخصيب والأتان الشبقة، وهو عالم الرغبة والوهم، لا وجود حقيقياً له: إنه المكان الخلّبي الذي يعتمد لإغراء الحمار كي ينتقل من المرج إلى الأجمة، والذي لن يصل إليه أبداً، وهو بالطبع خيالي لا يشتمل على أي تحرك كان، إنه في الحقيقة يتماهى مع العالم الثالث ويتوحد معه.

بناء لذلك تعين التحركات ثلاثة أماكن فعلية يحتل الثاني والثالث بينها موقعاً مخطياً باعتبارهما مجال الاحتكاك والصراع بين الأطراف المعنية.

إذا كان التماثل قوياً وبارزاً بين هذه المعطيات المكانية وبين تلك التي وردت بصدد الفرد والغيلم، فمن الملاحظ أن تمايزهما يظهر واضحاً بشكل خاص في مسألتين لا تعدمان الترابط الوثيق بينهما:

الأولى تتعلق بذاك التحرك المزدوج الذي يدل في كلتا الحالتين على خديعة وتضليل. ففي الحكاية الأولى نلحظ أن هناك تحركين من هذا النوع باتجاهين متعاكسين يشير الأول منهما إلى احتيال الغيلم على القرد (يساراً) والثاني إلى احتيال القرد على الغيلم (يميناً) فكأن الثاني منهما يلغي الأول ويزيل بالتالي الأذى أو الخطر الذي تضمّنه؛ بينما نلحظ في الحكاية الثانية أيضاً تحركين مزدوجين إنما من النمط نفسه وفي الاتجاه ذاته، فهما يدلان على تأكيد للاحتيال المتضمّن فيهما وهو احتيال ابن آوى على الحمار يتكرر لتثبيت الأذى أو الخطر المتضمن وما يعنيه من إجهاز على الحمار.

الثانية تتعلق بالتماثل بين بدايتي التحركات في كلتا الحكايتين وبالاختلاف في نهايتيهما. ففي حين تبدأ كل منهما في الانتقال إلى المنطقة الوسطى ـ الفاصلة بين العالمين الإيجابي (الأول) والسلبي (الثالث) فإن الحكاية الأولى تنتهي في العودة إلى هذه المنطقة، بينما تنتهي الثانية في البقاء في العالم السلبي. وكل من النتيجتين مرتبطة

بما سبق ذكره بصدد التحرك المزدوج، بل إنه نتيجته المباشرة. فإذا كانت الأولى تضييعاً لما ظفر به، فإن الثانية بناء لذلك استعادة لهذا التضييع واحتفاظ بالظفر، وهذا ما يشير إليه القرد نفسه حين يعلن للغيلم اختلافه عن الحمار.

وإذا كان لدلالات أخرى أن تذكر هنا فأولاها هذا التحذير الواضح من عالم الغير المعادي للذات، وتحديداً من طرق الاحتيال والخداع المعتمدة من قبله، وبتحديد أكبر من استغلال الأهواء والرغبات للتوهيم والتضليل. كما يبدو التحذير واضحاً من مغبة التحول من مكان إلى آخر، إذ إن الانتقال إلى عالم الآخر خطر مميت، لكن التواجد في منطقة قريبة منه، حدودية أو فاصلة، هو تواجد خطير رغم ما قد يكتنفه من منافع، فتبدو الإقامة في المكان الأصيل هي الخيار الأفضل، الأكثر أماناً ورعاية. ويجدر التمييز هنا بين انتقال اضطراري (كالنفي) تحمل عليه الشخصية (القرد) وبين انتقال اختياري (كالرعي) تسدر فيه الشخصية (الحمار) وهو ما نجد آثاره في «حمل» الغيلم للقرد للانتقال إلى المنطقة المعادية، مقابل سعي الحمار «برجليه» إلى حتفه.

ج ـ لا تبدو هذه الطروح منفصلة عن أوضاع الشخصيات المعنية بها. فانتماء هذه الشخصيات إلى أنواع محددة من الحيوان وتمتعها بالتالي بخصائص ومميزات معينة ليس مصادفة أو اتفاقاً، بل تبدو قصديته بارزة من خلال الدور الذي يؤديه، وهو دور يتكامل مع توزيع الفضاء القصصي ونمط التحرك المكاني فيه ودلالاته كما تسمح باستنتاج ذلك نظرة متفحصة لطبيعة الشخصيات المعتمدة. فالقرد حيوان برّي ثديي يعيش في الأشجار في حياة اجتماعية مركبة وللبعض منه أنماط عيش أرضية، والغيلم حيوان بحري يعيش في الماء لكنه يتردد إلى الضفاف حيث تعود أنثاه لتبيض؛ فهما مختلفان أساساً دون أن يستبعد هذا الاختلاف إمكان لقاء بينهما في حال اجتماع التقاليد الأرضية لدى القرد مع تردّد السلاحف إلى الضفاف. والقرد آكل نبات ولحوم على غلبة نباتية، في حين أن الغيلم آكل لحوم ونبات على غلبة لحومية؛ وهو اختلاف آخر لا يعدم بدوره إمكان اللقاء عند الهامش النباتي (أو اللحومي) المشترك. لذلك فإن الصداقة التي تنعقد بين الطرفين تنشأ وتقوم تحديداً عند ساحل البحر وعلى أساس نباتي (التين). لكن تجاوز هذا الهامش المكاني من قبل أي من الطرفين يحمل إلى صاحبه الخطر حيث أن أياً منهما لا يقدر على الاستمرار في المجال المكاني للآخر. كما أن هناك خطراً أكبر على القرد يتمثل في كون احتمال تحوله طعاماً للغيلم أكبر بكثير من تحول هذا الأخير طعاماً له. لذلك نجد أن الصداقة التي جمعتهما ارتبطت بالساحل والنبات في حين جاء اللحم (قلب القرد) والماء (ركوب البحر) ليفرق بينهما. ولما كان هذان العنصران (اللحم والماء) خاصة الأخير منهما، يتناسبان مع وضع الغيلم ولا يتناسبان مع وضع القرد فإن ذلك يعني أن المستفيد من التحول إليهما هو الأول بينما هما مضران بالأخير الذي يشكل التورط فيهما خطراً على حياته. لذلك تشكل العودة إلى الساحل وصعود الشجرة من قبل القرد الوضع المناسب الذي يستعيد فيه الشروط المواتية لطبيعته، ويكون بلوغه ذلك دالاً على خلاصه.

بناء لهذه المعطيات يتخذ التحذير أبعاداً تشخيصية قاطعة الدلالة. فالفضاء الوسط (ساحل البحر) المشترك بين عالمي القرد والغيلم هو صورة تجسيمية مكانية عن الخصائص المشتركة بين كلا الطرفين على المستوى التكويني والطبيعي، والتحذير موجّه خاصة للطرف الأضعف. فالنص ينبه إلى مخاطر العلاقات بين أطراف غير متجانسة، مشدداً على عدم تجاوز المدى المشترك الجامع الذي يقيمه تجانسها، ولكنه ينبه خاصة من العلاقات بين أطراف غير متكافئة، وبالأخص من إتاحة الفرصة لهذا اللاتكافؤ أن يؤدي فعاليته. في أساس هذا التنبيه يأخذ الجهل اهتماماً خاصاً، إذ إن المعرفة وحدها هي التي تتيح تقدير المتجانس والمشترك، وهي التي تؤدي في حال الخلل إلى إصلاحه، على أن الجهل باب الانخداع الواسع الذي ينفذ منه الاحتيال والأذى. وإذا كان جهل القرد بحقيقة وضع الغيلم هو الذي رماه في ورطة الهلاك الذي تهدّده فإن جهل الغيلم بحقيقة وضع القرد هو الذي أتاح لهذا الأخير النجاة؛ وجهل الآخر هو على كل حال في أساس المثل الذي يقدمه القرد للغيلم.

إن الحمار ثدييّ من ذوات الحافر وآكل نبات كما أنه في هذا المثل حيوان أليف، بينما الأسد ثديي من الوحوش ذوات الظفر وآكل لحوم، فالتناقض بينهما خلافاً لذاك الجزئي بين القرد والغيلم كامل ويتمثل خاصة في اعتبار الأخير الأول طعاماً له، كأن حياة أحدهما (الأسد) تقوم على موت الآخر (الحمار) فاللاتجانس هنا يلتحم مع اللاتكافوء حيث يشغل الأسد موقع المسيطر والأقوى. وإذا كان ساحل البحر مجالاً مكانياً مشتركاً بين القرد والغيلم فإن المرج يشكل فاصلاً مكانياً بين عالم الأسد المعروف بإقامته في أجمات ومناطق حية خاصة وبين عالم السكن والعيش الإنساني. إلا أن الحيوان الذي يعيش في المروج والغابات والذي يطرق غالباً القرى والمزارع هو ابن آوى الذي يتمتع إلى جانب هذه الخاصية في التحرك بخاصية كونه ثديياً وآكل لحوم مع إضافة الفواكه إليها. إنه يشكل بناء لذلك العنصر القادر على إقامة الاتصال بين الحمار والأسد (عبر تحركه) والقادر أيضاً على إظهار المودة والصداقة والتغرير بالحمار (عبر نباتيته الجزئية) وهو ما يقوم به وينجح فيه. كما أن الحمار مقدم هنا كنموذج على الجهل التام بالطرف الآخر أكان هذا الطرف قريباً (ابن آوى) أم بعيداً (الأسد) وهو بالتالي نموذج ضحية العلاقات بين أطراف غير متجانسة وغير متكافئة.

لا يقدم النص في المقابل العلاقات بين الشخصيات المتماثلة ذات الخصائص النوعية الواحدة على أنها علاقات وئام ومحبة وتعاون محض، بل إنه يبرز الصراعات والتوترات التي تحكمها. إنما لا تمضي هذه الصراعات إلى حد القتل إجمالاً، كما أن غاياتها لا تقصد إيذاء أبناء الجنس الواحد وإلحاق الضرر بهم، على العكس من ذلك فإن

الهدف البارز هو المحافظة على مصلحة الجماعة في قوتها وتلاحمها. هذا ما يبينه انقلاب القرود على ملكهم، فهرم هذا الأخير البالغ يجعله غير مؤهل للاستمرار في السلطة، ويصبح تغييره أمراً مطلوباً لصالح الجماعة ككل، وليس المقصود من عزله إيذاءه هو بالذات. كذلك هو الأمر بالنسبة لزوجة الغيلم وصديقتها اللتين تآمرتا للتخلص من القرد، فليس المقصود من ذلك الإضرار بالغيلم نفسه بالقضاء على صديقه، بقدر ما هو استعادة زوجة الغيلم لزوجها والمحافظة على تلاحم العلاقات العائلية في مجتمعهما. وفي الإطار نفسه يمكن جعل تعاون الزوجة وصديقتها من أجل بلوغ هذا الهدف. وإذا كانت الحالة الأولى لم تستبعد القوة فإن الثانية لم تستبعد الاحتيال، وفي الحالتين لا يصل الصراع إلى حد القتل كما تمثل في مشروع الغيلم بالنسبة للقرد وكما تحقق بالنسبة للحمار على يد الأسد (وابن آوى).

هكذا يتقدم النص بالنسبة لعلاقات الأطراف المتماثلة منبهاً بينما يتقدم بالنسبة للأطراف غير المتجانسة وخاصة غير المتكافئة محذراً على تراتبية تتدرج حدة بقدر تدرجها ابتعاداً وتنافراً واختلالاً...

د ـ من البديهي أن تتعلق تحركات الشخصيات المرتبطة بدوافع الرغبة وأهدافها غير المنفصلة عن خصوصيات تكوينها، بشكل وثيق بالمدى الزمني الذي تتم فيه أو الذي تقحمه في عمليات تحقّقها. فالتحرك هو إجراء مكاني ـ زماني يستلزم فضاء محدداً ليشغله في فترة زمنية معينة. لذلك تبدو دراسة البعد الزماني مقتضاة في أي مقاربة للتحرك والعوالم المكانية التي يشغلها.

أول ما يلفت الانتباه بهذا الخصوص الأثر السلبي الناتج عن طول الامتداد الزمني في الإقامة كما في التحرك. ويعلن النص ذلك في حكاية القرد والغيلم في تعبير يذكر الزمان تصريحاً حين يشير إلى الصداقة التي انعقدت بين القرد والغيلم و«لبثا زماناً لا ينصرف الغيلم إلى أهله»، كما يؤكد على لسان الغيلم طول المدة التي انقطعا فيها إلى بعضهما حين يقول في نفسه: «لآتينّ أهلي فقد طالت غيبتي». ذلك أنه بسبب طول هذه المدة الزمنية التي قضاها الغيلم مع القرد يكون حزن زوجته ثم حنقها واحتيالها عليه. لكن الغيلم نفسه يتأخر في زيارة أهله ويبطىء في العودة، وهو ما يدفع القرد إلى سؤاله عن سبب هذا الانقطاع المديد: «ما حبسك عني كل هذا الحبس؟» وإذا كانت الإطالة الزمنية الأولى مجالاً للاحتيال على الغيلم من قبل زوجته (وجارتها) فإن هذه الإطالة الثانية مجال للاحتيال على القرد الذي قرّر الغيلم انتزاع قلبه. إلا أن هناك إطالة من نوع آخر تتمثل في احتباس الغيلم وإبطائه في البحر والقرد على ظهره، هذا الإبطاء الذي يشكل امتداداً زمنياً لتوقف الغيلم يكون سبباً لاكتشاف القرد حقيقة أمره وما يضمره له، ويكون بالتالي دافعاً لاحتيال القرد عليه ليتخلص من أذاه المحدق به. كما يكون إبطاء القرد على الغيلم الذي أقام «ساعة ينتظره» ليعود بقلبه مرتبطاً بإنجاز هذا التخلص المقصود، فيكون الإبطاء هنا على الساحل كما في البحر مناسبة لخسارة الغيلم ما سبق وظفر به.

هكذا تبدو كل إطالة زمنية مدعاة لقلق ينبّه النص على ضرورة تبين حقيقتها، دون أن يعني ذلك أن الإسراع أمر مرغوب فيه. إذ إن عمليات الاحتيال الثلاث الواردة في حكاية القرد والغيلم تشدّد على قصر الامتداد الزمني بشكل بارز كعامل أساسي في نجاحها. فصديقة الزوجة المتمارضة تلح على خطورة حالتها مشيرة إلى الموت الداهم لها إن لم تجد الدواء اللازم (قلب القرد) بحيث يصبح إسراع الغيلم لتأمينه ضرورة لازمة للإبقاء على حياتها، ويشكل إلحاح الغيلم على القرد لزيارته وجهاً من أوجه التشديد، بينما يجيء تأكيد الإسراع في احتيال القرد على الغيلم في تقديمه العام (عدم إدخار نصيحة أو منفعة عن الصاحب) كما في عرضه المباشر (الإتيان بقلبه «سريعاً») من العوامل التي أقنعت الغيلم وأنجحت الاحتيال. وإذا كان الإبطاء يدخل في باب التنبيه كي يتلافى وقوعه نظراً لمضاعفاته السلبية (وليس صدفة ضمن هذا المنظور أن تبدأ الحكاية بذكر ارتباط طول عمر القرد حتى بلوغه الهرم بالانقلاب الذي يطيح ملكه وينتهي إلى نفيه) وكي يحسن تأويله لفهم حقيقة مغزاه، فإن الإسراع باعتباره دعوة للتسرع الذي يستجيب لأهداف الاحتيال وينفذ مهماته يدخل في باب التحذير كي يتلافى التورّط في شباك الاحتيال المنصوبة من قبل الآخر.

هذا ما تؤكده حكاية الحمار وابن آوى والأسد حيث يظهر تشديد الأسد على الإسراع في تنفيذ ما عرضه عليه ابن آوى من مشروع احتيال للإتيان بالحمار إليه قائلاً له «إن قدرت على ذلك فافعل ولا تؤخرن...» وهذا ما يقوم به ابن آوى مباشرة، حيث يتمثّل الإلحاح في خداعه للحمار بذكر الأتان الفائقة الحسن والمحتاجة للفحل؛ ويتمثل تسرّع الحمار باستجابته لهذا الإغراء وإلحاحه على الذهاب مباشرة للقاء هذه الأتان («ما يحبسنا؟ ألا انطلق بنا...») فوقع في فخ الاحتيال المنصوب له. وإذا كان الحمار قد أفلت من الأسد المرة الأولى وعاد إليه ليسّر له افتراسه في المرة الثانية، فإن بالإمكان اعتبار هذا الوضع صيغة من صيغ الإطالة أو الإبطاء الذي يعبر عن امتداد زمني في الإقامة والذي ينتج عنه أثر سلبي. ففي تفسير ابن آوى للحمار ما حصل في المرة الأولى دعوة له كي يبقى في مكانه ولا يفرّ كما فعل في المرة الأولى: «... الأسد أراد أن يتلقاك مرحباً بك ولو ثبت لآنسك ومضى بك إلى أصحابه» (أو كما في نسخة عزّام «إن التي وثبت عليك هي الأتان التي أخبرتك عنها وإنما وثبت عليك من شدة الودق، فلو كنت صبرت ساعة لصارت تحتك») وهذا ما يأخذ به الحمار على الأرجح حين يصدق هذا القول ويسارع بالعودة إلى الأسد، بما يتضمنه ذلك من اعتماده لاحقاً لنصيحة ابن آوى والثبات للأسد كي يجهز عليه. إن اجتماع التسرع والإبطاء هنا يدل على التفاقم المنتظر للمضاعفات السلبية لكل منهما كما تجسّد في نهاية الحمار المأساوية التي تمكن القرد من تلافيها.

بيد أن البعد الزمني في النص القصصي لا يقتصر على هذا الجانب الامتدادي للزمن، فهناك جانب آخر يضاهيه إن لم يتفوق عليه من حيث الأهمية وهو لا يعدم أوجه ترابط وتفاعل معه. إنه الجانب المتعلق بالحضور والغياب بالنسبة للأماكن والشخصيات بحيث يمكن الحديث بناء لذلك عن زمنين: زمن الحضور وزمن الغياب. يتميّز هذا الأخير عن الأول في كونه زمن التآمر وهو الذي يدخل الصراع إلى الزمن الأول ومعه الاحتيال أو الخداع. هكذا نجد أن غياب الغيلم عن أهله شكل زمن التآمر الذي تم فيه اتفاق زوجته وصديقتها على خطة للقضاء على صديقه القرد. كما أن غياب الغيلم عن صديقه هذا شكل حضوراً لدى أهله تمثل بالاحتيال عليه ودفعه للقضاء على القرد من ناحية، كما شكل مناسبة لانخراطه أو انغماسه في عملية التآمر من أجل ذلك من ناحية ثانية. إن عودة الغيلم إلى القرد تعتبر حضوراً جديداً يعتمد الغيلم فيه الاحتيال، ويدفع القرد لاحقاً إلى مجابهته. كأن زمن الحضور زمن متصل يأتي الغياب ليشكل فجوة فيه فيخلخله لما يدخله من عنصر جديد يغيب عن أحد أطرافه. ولما كان هذا العنصر الحادث في الغياب مؤامرة فإن أثرها السلبي في الحضور ينعكس في الصراع الذي تحدثه فيه. وإذا كان ما يحدث في الغياب سلبياً فإن ما يحدث في الحضور ردّ عليه إيجابي. على هذا النحو يكون خداع الغيلم المتصل بالتآمر سلبياً بينما يأتي خداع القرد المتصل بالحضور إيجابياً. لكن ما يحصل في غياب إحدى الشخصيات باعتباره مجهولاً لديها يمكن مماثلته بالباطن، في حين يمكن اعتبار ما يحصل في حضورها مماثلاً للظاهر. وإن اللبيب هو من يتوصّل إلى سبر الباطن انطلاقاً من الظاهر لبلوغ الحقيقة، وفي هذا العمل تحديداً تسدّ الفجوة الحاصلة في الغياب ويستعيد زمن الحضور بالتالي تماسكه واستقامته. هذا ما لم يفعله الغيلم مع زوجته فأخطأ، وهذا ما فعله القرد متأخراً مع الغيلم فأصلح خطأه، وهو ما يعجز في المقابل الحمار عن القيام به فيضيع نفسه.

فالتآمر الذي يتم بين ابن آوى والأسد يحدث في غياب الحمار، ويشكل حضور ابن آوى لدى هذا الأخير احتيالاً عليه يتخذ ظاهر الصداقة ليقضي عليه، أما حضور الأسد فظاهر آخر يفضح ما كان باطناً مجهولاً في غيابه. ويمكن اعتبار نجاة الحمار هنا مرتبطة بهذا الفضح أو هذه المعرفة تحديداً. إلا أن استعادته لوضعه السابق تتوازى وتتزامن مع غياب يتجدد التآمر فيه بين ابن آوى والأسد. كما أن حضور ابن آوى ثانية يكرر الاحتيال على الحمار مدفوعاً بهذا التآمر تحديداً، وهو يؤدي إلى إيهام جديد، بينما يشكل حضور الأسد ثانية تكريساً لهذا الإيهام وذاك الاحتيال يقضي على الحمار.

لكن حكاية الحمار وابن آوى والأسد تحفل بغياب آخر يتمثل في ذهاب الأسد للاغتسال وتركه ابن آوى والحمار القتيل وحدهما. يشكل هذا الغياب فرصة لابن آوى كي «يتآمر» على الأسد فيأكل أذني الحمار وقلبه «رجاء أن يتطير الأسد من ذلك فلا يأكل من بقية الحمار شيئاً»، مما يدخل خللاً على زمن الحضور ينعكس في «مجابهة» بين ابن آوى والأسد يعمد فيها الأول إلى الاحتيال على الثاني كي يبلغ التآمر هدفه، وذلك في ادعائه خلوّ الحمار من قلب وأذنين بدليل عودته إلى هذا الأخير (الأسد) بعد محاولته افتراسه. وفي المنظور نفسه يمكن اعتبار وجود الحمار وحده في المرج نوعاً من التعرض للغياب المتعلق هنا بصاحبه، بحيث يشكل هذا الغياب الفجوة التي ينفذ منها التآمر والاحتيال عليه.

على هذا النحو من الترابط الزماني ـ المكاني إسراعاً وإبطاءً وحضوراً وغياباً في التحركات المكانية للشخصيات وفي المجالات الفضائية المختلفة الخاصة بها تنتظم بنية النص القصصي في أدائها التمثيلي للأفكار الحكمية والتعليمية. ومن الملاحظ أن هذا الترابط يحصر الزمان في الإطار الحدثي الضيق بالإضافة إلى إبقائه محكوماً بالفضاء القصصي. يشير هذا الوضع إلى انعدام الدور التاريخي للزمن. فهو لا يعين خطاً تطورياً في بنية الحكاية، وأثر اندراج الماضي في الحاضر هامشي وهزيل، والمستقبل شبه معدوم. ذلك أن النظرة الحكمية هنا تقوم على التجريد والإطلاق، والحكاية تجري في أي زمن كان وتصدق مراميها على أي زمن كان. فتعبر في ذلك عن رؤية للمجتمع والوجود محسوسة ومحددة، ليست فردية بقدر ما هي صيغة من صيغ التعبير عن رؤية فئة اجتماعية خاصة تنتمي إلى نظام اجتماعي معين، عن رؤية طبقية في مرحلة تاريخية من مراحل تطور المجتمع الذي ينتمي النص الأصيل إليه، والتي تشكل استعادتها من قبل طرف آخر اقتباساً لها في خضمّ صراعات مجتمع آخر تهيأ لأصحابه أنها قد تخدم أطرافاً محددة فيه. لكن الذهاب في التأويل إلى مثل هذه التصورات يتطلب إنجازاً مسبقاً لكامل الأوجه الدلالية للنص ولجميع الأوجه الجمالية فيه التي يرسي إنجازها القواعد والأسس الثابتة ويؤمن الشروط المناسبة لأي إجراءات تأويلية لاحقة.

الجامعة اللبنانية ـ بيروت